أنرلـيات :

أبو الفضل بن شرف
الشاعر الفيلسوف
للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

« الناظم الناثر ، الكثير المعالى والمآثر ، الذى لا يدرك باعه ، ولا يترك اقتفاؤه واتباعه ؛ إن نثر رأيت بحراً يزخر ، وإن نظم قلد الأجياد دُرًّا تباهى به وتفخر ، وإن تكلم فى علوم الأوائل بهرج الأذهان والألباب ، وولج منها فى كل باب ؛ وقد كان أول ما نجم بالأندلس وظهر ، وعُرف بحَوْك القريض واشتهر ، تُسدّد اليه السهام ، وتنتقده الخواطر والأوهام ، فلا يصاب له غرض ، ولا يوجد فى جوهر احسانه عرض ؛ وهو اليوم بدر هذه الآفاق ، وموقف الاختلاف والاتفاق ، مع جرى فى ميدان الطب الى منتهاه ، وتصرف بين سماكه وسماه ، وتصانيف فى الحكم ألف منها ما ألف ، وتقدم فيها وما تخلف ، فمنها كتابه المسمى يسر البر ، ومنها الكتاب الملقب بنجح النصح وسواها ، من تصانيف اشتمل عليها الأوان وحواها » ... هذا هو كل ما قاله الفتح بن خاقان فى ترجمته لهذا الأديب الشاعر ، الفيلسوف النطاسى [1] أبى الفضل بن شرف . وقد جرى الفتح فى هذه الترجمة على شنشنته فى سائر تراجمه ، فلم يذكر اسم المترجم له ، ولا اسم أبيه ولا منشئه ، فضلاً عن أنه أغفل تاريخ مولده ووفاته .. وكذلك لم نر لغير الفتح ترجمة لهذا الأديب الكبير يصح أن تسمى ترجمة يعول عليها [1] ... ولكنا مع هذا آثرنا لا نعرض لترجمة أمثال هذا الأديب البارع المتفنن الذى نبغ منه شعرٌ شاعر وحكمة بالغة وكان إلى ذلك نطاسياً عظيما ، كما يؤخذ من كلام الفتح ، ومن ثم يعد بحق من مفاخر الأندلس ؟ وما قيمة عملنا إذا نحن ضربنا الذكر صفحاً عن مغمورى أفاضل الأندلس أولئك الذين لم يوف المؤرخون تراجمهم حقها . . ؟ وإياك والظن أنا نعنى بقولنا مغمورين أنهم لم يكونوا مشهورين فى عصورهم ، وإنما نعنى أنهم مغمورون فى نظر أدباء هذه الأجيال . وقليل لعمرى من سمع منّا بهذا أبى الفضل بن شرف سماعه مثلاً بابن هانئ وابن خفاجة وابن زيدون وابن عمار وابن وهبون وابن عبدون وأمثالهم ممن اضطرب ذكرهم وكانوا من الشهورين

« وأما بعد » فهل تدرى من هو أبو الفضل بن شرف هذا ؟ أظنك لا تجهل أديب القيروان وكاتبها وشاعرها أبا عبد الله محمد ابن أحمد بن شرف الجذامى القيروانى قرين ابن رشيق ومنافسه فى خدمة المعز بن باديس ومنادمته والمتوفى سنة ٤٦٠ هـ ؛ إذن فلتعلمن أن المترجم له هو ابن هذا الأديب القيروانى العظيم واسمه جعفر بن أبى عبد الله محمد بن أحمد بن شرف المذكور . . دخل الأندلس مع أبيه ، وهو ابن سبع سنين ، وقيل إنه ولد فى الأندلس بعد أن نهد اليها أبوه وأقام بقرية من قراها تسمى برْجَه [2] ومن ثم يقال للمترجم أبو الفضل بن شرف البرْجى . وللمترجم ابن فيلسوف شاعر مثله هو أبو عبد الله محمد بن أبى الفضل المذكور — وهو القائل :

وكريم أجازنى من زمان ... لم يكن من خطوبه لى بُد
منشد كلما أقول تناهى ... ما لمن يبتنى المكارم حد

هكذا يحدثنا المقرى عند إيراده قافيّة المترجم التى يمدح بها المعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف والتى ستمر بك قريباً . ومن هذا ومن قول الفتح فى كلمته التى صدرنا بها هذه الترجمة ، « وهو اليوم بدر هذه الآفاق » يستنتج أن المترجم أبا الفضل بن شرف هذا أدرك ملوك الطوائف ودولة المرابطين ، أى أنه عاش فى أواخ

(١) الطبيب

(١) ويؤخذ من خطبة الذخيرة أن ابن بسام ترجم له ، ولكن ترجمته إنما هى فى الأجزاء المفقودة

(٢) مدينة من أعمال ألبيرة

(صوت الحجاز) التى تصدر بمكة ، وهذه الصحيفة هى المنبر الوحيد الذى يتبارى من فوقه حملة الأقلام فى الحجاز ، وفى نية بعض اخواننا من أدباء المدينة وشبابها انشاء صحيفة فى المدينة كصوت الحجاز ، ونرجو لهم التوفيق ، لأن الصحافة كما أنها عنوان رقى البلاد فانها الباعث الوحيد لانهاضها وانعاشها فى هذا العصر

وخلاصة القول أن فى الحجاز اليوم حياة أدبية ، واحساساً أدبياً ، زاخرين بالآمال فى مستقبل أدبى مجيد رائع لهذه البلاد . والآمال هى مصابيح الحياة ؛ وما دامت حياتنا الأدبية تحمل بين يديها هذه المصابيح ، فانها ولا ريب بالغة قمة النجاح

(المدينة المنورة — الحجاز) عبد القدوس الأنصارى

القرن الخامس وأوائل القرن السادس

وقد حدثنا الفتح فى كلته بأنه شاعر وأنه فيلسوف وأنه طبيب . أما أنه طبيب فلم نقف له على أثر فى الطب ويبدو أنه كان يحترف الطب ويتكسب به وإن لم يؤلف فيه ، وربما ألف وضاعت تواليفه فيما ضاع من شتى التواليف . وكذلك الحكم فى أنه فيلسوف إذ لم يذكر لنا المؤرخون شيئاً من آثاره فى الفلسفة ، ولعلهم يعنون بفلسفته ما أثر عنه من الحكم مثل هذه الكلم الجوامع ، والحكم الروائع التى أثرت عنه وهى : « العالم مع العلم كالناظر للبحر ، يستعظم منه مايرى وما غاب عنه أكثر . الفاضل فى الزمن السوء كالمصباح فى البراح ، قد كان يضيء لو تركته الرياح . لتكن بالحال المتزايدة أغبط منك بالحال المتناهية ، فالقمر آخر ابداره ، أول إدباره . لتكن بقليلك أغبط منك بكثير غيرك ، فان الحى برجليه وهى ثنتان ، أقوى من الميت على أقدام الحملة وهى ثمان . المتلبس بمال السلطان كالسفينة فى البحر إن أدخلت بعضه فى جوفها أدخل جميعها فى جوفه . التعليم فلاحة الأذهان ، وليست كل أرض منبتة . الحازم من شك فروّى ، وأيقن فبادر . قول الحق من كرم العنصر كالمرآة كلما كرم حديدها أرت حقائق الصفات . ليس المحروم من سأل فلم يعط ، وإنما المحروم من أعطى فلم يأخذ . يا ابن آدم ! تذم أهل زمانك وأنت منهم ، كأنك وحدك البرىء ، وجميعهم الجرىء ، كلا بل جنيت وجنى عليك ، فذكرت ما لديهم ونسيت ما لديك . اعلم أن الفاضل الذكى لا يرتفع أمره أو يظهر قدره ، كالسراج لا تظهر أنواره أو يرفع مناره ، والناقص الدنىء لا يبلغ لنفعه إلا بوضعه ، كهو جل السفينة لا ينتفع بضبطه ، إلا بعد الغاية فى حطه » . . . . إلى أمثال هذه الكلمات البديعة الحكيمة الشاعرة الناصعة البيان ، المنيرة البرهان ، التى لا تصدر إلا عن حكيم جهبذ من الراسخين ، وأديب بارع من ذوى القرائح المطبوعين . ويشبه هذه الكلمات من شعر المترجم له قوله :

إذا ما عدوك يوماً سما ... إلى رتبة لم تطق نقضها
فقبل ـ ولا تأنفن ـ كفه ... إذا أنت لم تستطع عضها

وإذ قد وصلنا إلى شعر هذا الشاعر الفيلسوف كما يطلق عليه الأندلسيون فلنذكر أن شعره الذى وقع الينا ينم على أنه شاعر متفنن رفيع الطبقة رصين الشعر ، دقيق الفكر ، لطيف التمثيل . ومن قصائده الفائقة قصيدته القافية التى أنشدها المعتصم بن صمادح أحد ملوك الطوائف ، وكان قد قصر أمداحه عليه ، وكان يفد عليه فى الأعياد وأوقات الفرج والفتوحات . ولما وفد عليه وأنشده هذه القصيدة كان فى زى تظهر عليه البداوة بالنسبة إلى أهل حضرة المملكة [1] واليك هذه القصيدة :

مَطَلَ الليل بوعد الفلق ... وتشكّى النجم طول الأرق
ضربت ريح الصبا مسك الدجى ... فاستفاد الروض طيب العبق
وألاح الفجر خدا خجلا ... جال من رشح الندى فى عَرَق
جاوزَ الليل إلى أنجمه ... فتساقطن سقوط الورق
واستفاض الصبح فيه فيضة ... أيقن النجم لها بالغرق
فانجلى ذاك السنا عن حلك ... وانمحى ذلك الدجى عن شفق
بأبى بعد الكرى طيف سرى ... طارقا عن سكن لم يطرق
زارنى والليل ناع سُدْفه ... وهو مطلوب بباق الرمق
ودموع الطَّلّ تمريها الصبا ... وجفون الروض غرقى الحدق
فتأنى فى إزار ثابت ... وتثنى فى وشاح قلق
وتجلى وجهه عن شعره ... فتجلى فلق عن غسق
نهب الصبح دجى ليلته ... فحبا الجد ببعض الشفق
سلبت عيناه حَدَّى سيفه ... وتحلى خده بالرونق
وامتطى من طرفه ذاخبب ... يلثم الغبراء إن لم يعتنق
أشوس الطرف عرته نخوة ... يتهادى كالغزال الخرق
لو تمطى بين أسراب المها ... نازعته فى الحشا والعُنق
حسرتْ دُهمته عن غُرة ... كشفت ظلماؤها عن يقق
لبست اعطافه ثوب الدجى ... وتحلى خده باليقق
وانبرى تحسبه أجفل عن ... لمعة او جنة أو أولق
مدركا بالمهل ما لا ينتهى ... لاحقا بالرفق ما لم يلحق
ذو رضى مستتر فى غضب ... ذو وقار منطوٍ فى خرق
وعلى خَدّ كعضب ابيض ... أذن مثل سنان أزرق
كلما نصبها مستمعاً ... بدت الشهب الى مسترق
حاذرت منه شبا خطيّة ... لا يجيد الخط ما لم يعشق
كلما شامت عذارى خده ... خفقت خفق فؤاد فرق
فى ذرى ظمآن فيه هيف ... لم يدعه للقضيب للورق
يتلقانى بكعب مصقع ... يقتفى شأو عذار مفلق
إن يدر دورة طرف يلتمح ... أو يجل جول لسان ينطق

(١) عاصمتها وكانت عاصمة مملكة المعتصم بن صمادح مدينة المرية